تعد الفنون التشكيلية ترجمة حقيقية للتجربة الوجودية للفرد والجماعة باعتبارها أداة جمالية للتعبير عن المسارات الحضارية للجماعة وكذا الوعي الشعوري للفنان، والجزائر تسخر بثراء فني سجل عبر صفحاته بالريشة واللون محطات تاريخية عبرت عن نظمه الحياتية وسلوكاته اليومية التي رسمت تجربته الوجودية الكبرى إلى درجة أن أحد النقاد الغربيين وصف الفن الجزائري بعبارة راقية :"ان رسامي الشرق كانوا من بين أفضل أولئك الذين تمكنوا من تحويل أناملهم إلى عدسات" وتعد الفنانة الجزائرية **باية محي الدين** (1931–1998) رمزا من رموز الفن التشكيلي الجزائري بأعمالها التي طبعت القرن العشرين بوسمة فنية رائدة في الجزائر وفرنسا والعالم العربي حيث إن الكثير من أعمالها محفوظة في مجموعة الفن الساذج في **لوزان** بـ **سويسرا** .

يتجه عمل **باية** التشكيلي نحو البساطة والسذاجة منذ أن كان عمرها ثلاثة عشرة سنة بالإضافة إلى أنها فنانة خارج التصنيفات المدرسية للفنون التشكيلية حيث أن تأثرها بالفنان التكعيبي الاسباني **بابلو بيكاسو** واشتغالها معه جعل جميع أعمالها تميل إلى حد ما إلى الفن التكعيبي وأغلب لوحاتها تشير إلى

هذه الرؤية، ولقد عرضت أعمالها لأول مرة على الجمهور الفرنسي سنة 1947، كما قام بيكاسو سنة بعد ذلك برسم مجموعة لوحاته تحت عنوان **نساء الجزائر** والتي نالت إعجابا منقطع النظير لهذا الفن البدائي العفوي والساذج.

إن الهدف من هذه الدراسة هو البحث في الظاهرة الجمالية للوحات الفنية التي تستهدف المتلقي من جهة، والبحث كذلك في الأثر الفني لأيقونات الرسم التشكيلي عند الفنانة **باية**. وتأسيسا على ما سبق يطرح إشكال معرفي مهم يفرض نفسه بإلحاح: كيف تشكلت التجربة الفنية التشكيلية للفنانة باية ؟ أين يظهر الابداع في هذه التجربة ؟ كيف يمكن استثمار هذه التجربة ؟

ينطلق هاجس البحث في دراسة موضوع الجماليات البصرية من ضرورة الوقوف عند أهم المراحل التي أسست التجربة الفنية والجمالية للفنانة **باية محي الدين** ، وهذه الضرورة تلزمنا إتباع منهجا تحليليا لأن طبيعة الموضوع هي التي تحدد لنا نوعية المنهج، هذا من جهة ومن جهة ثانية نحاول إعطاء هذا الموضوع بعدا إجرائيا حتى نقرب المتلقي من الصورة التي هي عليها الجماليات البصرية في الجزائر.

باية محي الدين أو **فاطمة حداد** زوجة محي الدين فنانة جزائرية تشكيلية من أصول قبائلية ولدت في 12 ديسمبر 1931 في برج الكيفان بالجزائر العاصمة نشأت يتيمة الأبوين منذ الولادة وترعرعت في الفلاحة مع جدتها التي تقيم عند معمرين فرنسيين ثم أخذتها أخت صاحب المزرعة تدعى **مارغريت كامينة** لتساعدها في أشغال البيت، ولكونها أعجبت بمنزل هذه السيدة الفرنسية شرعت **باية** في تشكيل تماثيل صغيرة لحيوانات وشخصيات من خيالها بواسطة الطين مما أثار إعجاب مارغريت فشجعتها ودعمتها بأدوات الرسم إلى درجة أن أحد النحاتين الفرنسيين يدعى جون بيريساك عرض رسوماتها على **إيمي ماغت** * Aimé Maeght يعود الفضل في هذه البداية الموفقة لهذه الفنانة إلى **مارغريت كامينة** التي اشتهرت بالتجسيدات والرسومات الحريرية التي أخذتها عن زوجها الانجليزي المتخصص في رسم المحاكاة الشخصية.

إن الحديث عن الفنانة **باية** يطول إلا أنه مشوق وحافل بالإنجازات الفنية التي رسمتها الأطوار التطورية التي مرت بها، حيث إن أول أعمالها عرضت على الجمهور الفرنسي بباريس في معرض **غاليري ماغت** سنة 1947 ونالت أعمالها نجاحا باهرا للفن البدائي العفوي والساذج الذي لم يعرفه ولم يألفه لا الفرنسيون ولا غيرهم ، حيث أثارت اهتمام كبار الفنانين مثل **بابلو بيكاسو** الذي طلب منها أن ترافقه للاشتغال معه في ميدان الرسم واستفادت خلالها كثيرا وتم وضع أول صورها في مجلة **فوك** Vogue وعمرها لم يتجاوز السادسة عشر، كما التقت بأحد رموز الفن التكعيبي وهو **جورج براك**، كما أثرت حرارة اللون وبراءة الدهشة التي تتصارع في لوحاتها في الأوساط التشكيلية العالمية منذ أواخر الأربعينيات حيث اكتشف السرياليون الفرنسيون وبالأخص الشاعر السريالي الكبير **أندري بريتون** مواهبها الفنية المتفجرة وحالة الرفض في ألوانها، وبعد الاستقلال عادت الفنانة إلى الجزائر والتحقت بجدتها ثم تزوجت وكانت الزوجة الثانية للموسيقار الأندلسي الحاج محفوظ محي الدين الذي يكبرها بـ ثلاثين سنة

حيث توقف نشاطها الفني حوالي عشر سنوات وتحت الإلحاح الحميم لمديرة متحف الجزائر عادت للرسم مرة أخرى وتم شراء أعمالها من طرف المتحف لعرضها في كل من الجزائر وباريس والعالم العربي، والكثير من أعمالها محفوظة في مجموعة الفن الساذج في لوزان بسويسرا، وإلى جانب الرسم والفن التشكيلي عملت الفنانة بالطين والخزف وكان لها ورشة عمل ضخمة في ضاحية باريس قرب مرسمة بيكاسو الذي عملت معه سنة 1948. توفيت الفنانة التشكيلية باية في 09 نوفمبر 1998 بالبليدة.

ومن أهم أعمالها :

في الفنون التشكيلية: **امرأة وطائر في قفص، العازفة والعود، الشابة والطاووس.**

باية محي الدين، الشابة والطاووس، (456x600) ، 1948، مجموعة الفن الساذج ب لوزان سويسرا

باية محي الدين، امرأة والطائر في قفص، (315x246)، 1948، مجموعة الفن الساذج ب لوزان سويسرا

أما في فنون النحت والخزف: تماثيل صغيرة لشخصيات وحيوانات وهمية – خيالية.

-تماثيل من الفخار زينت على بلدته في فرنسا.

لقد تفننت **باية** في صنع تجربتها الفنية الجمالية بأناملها رغم قصرها إلى درجة أن أحد النقاد المغاربة يدعى **إبراهيم الحيسن** قال عنها أنها رسامة فطرية امتزج أسلوبها بعفوية الأطفال، ونافست أعمالها كبار الفنانين العاميين أمثال **بيكاسو، براك ، ماتيس** والشاعر **أندري بريتون** الذي قال عنها: "إن ما تسعى إليه باية أمر له دلالة كبيرة في زمن يخضع فيه الاسلام ويستعمر على نحو فاضح فالقصص الخرافية تمثل لب الشعب وهذه الفنانة رائية إنها ترى وهي تتطلع إلى السماء ولكنها تحب الأرض أيضا إنها زهرة تسأل الزهرات المحيطة بها أن ترعى أولئك الذين تحبهم".

لا يمكن إغفال دور السيدة الفرنسية **مارغريت كامينة** في نمو وتبلور روح التنشئة الفنية لدى **باية** بحيث أنها صقلت مواهبها وروضت فطرتها واستفزت ملكاتها في الرسم وشجعتها على الاعتكاف في ما يسمى بالرسم التجسيمي الذي حولته **باية** إلى الفن الساذج *، كما أن ندرة الكتابات والقراءات حول الفنانة **باية** ومسارها وإنجازاتها يعود إلى ظروف تاريخية حالت دون أن يذاع صيتها بحيث أنه بمجرد أن بدأت ابداعات تتكشف إلا وصادفت الفنانة عائق الاستعمار والثورة التحريرية المجيدة .

إذن ومن هذا المنطلق ارتسمت التجربة الفنية التشكيلية لهذه الفنانة وتجلت معالمها في ما قاسته على المستوى الشخصي "حياة اليتم" وعلى المستوى الفني عندما توقفت عن الرسم ثم عادت تحت الإلحاح، وهذا ما سيظهر وتتضح ارتداداته على لوحاتها الفنية التي ستعكس هذا التجربة، وستكشف عن نمط جديد من الفنون هو الفن الساذج.

بدأت **باية** تحديد معالم هذا النمط من الفنون وهي صغيرة السن في انجازها تماثيل صغيرة لشخصيات وحيوانات خيالية وأواني فخارية، وتمثل مرحلة وفاة زوجها عام 1979 قمة ابداعاتها حيث رغم حزنها الشديد عليه إلا أن ذلك لم يوقف نشاطها الفني، فانطلقت في تشكيل رسوماتها ورسم تشكيلاتها من موضوعات مبسطة أغلبها مستمد من الطبيعة والأرض ومعالم البيئة الحية ، حدائق، مشاهد طفولية، وجوه آدمية تلهو داخل حدائق من ألوان، نخيل، عناقيد العنب، أسماك، إضافة إلى المزهريات والعرائس وغير ذلك من الموضوعات التي ظلت تجسدها في رسوماتها العفوية المتنوعة وميزة هذه الرسومات أنها مفعمة بالكثافة اللونية المرفقة بخطوط الإحاطة، أبرزها الوردي، الهندي، الأزرق الفيروزي، والبنفسجي المزهر والأصفر الساجي والأحمر الناري، والتنوع في الألوان يعود إلى أنها كانت تعيش في منزل رائع مليء بالورود والأزهار والعصافير والفراشات الرشيقة والقطع التراثية الجميلة.

وإذا حاولنا إجراء دراسة لأيقونات الرسم التشكيلي في لوحة **امرأة وطائر في قفص** تظهر أشكال مشوشة بألوان حمراء نارية، وزرقاء داكنة، يتوسطها قفص بلون أسود، والناظر لهذه اللوحة يتراءى له منذ الوهلة الأولى أنها لوحة من فن المنمنمات، كما أنه سيعجب برسم الطائر وهو يقبل يد المرأة التي تبدو بين طرفين متقابلين نصف جسد على اليمين والنصف الآخر على الشمال، وبين اللونين الأزرق والأحمر تظهر حرارة الصورة وبراءة الدهشة التي تتصارع في هذه اللوحة، كما أن الفنانة لم تذخر أي جهد أو تكليف في استخدام الألوان لأنها اعتمدت على لونين بريقين يخدمان بصورة بسيطة الموضوع المراد تشكيله.

أما في لوحة **الشابة والطاووس** يتجلى سحر لا مثيل له في عالم الفن التشكيلي، الشابة تتوسط الطاووس الذي يظهر على طرفين متقابلين على اليمين بشكل مائل ذو لون أزرق يميل إلى البنفسجي، وعلى الشمال يظهر بشكل واضح وبلون بني وكأنه يحاول أن يتلمس يدي الشابة، ويغلب على اللوحة اللون الأسود، كما أن اللباس الذي ترتديه الشابة تمتزج فيه جميع الألوان الموجودة في اللوحة : الأزرق،

البني، الأسود وهي ألوان أساسية في اللوحة، أما الألوان الثانوية هي: الأحمر، الأصفر وجدت لزخرفة الأشكال والخطوط. وما نجده في هاتين اللوحتين نجده حاضرا كذلك في لوحة العازفة والعود .

إن القاسم المشترك الذي يجمع بين هذه اللوحات الثلاث هو: الإبداع في الأشكال والألوان رغم بساطتها، واعتمدت الفنانة على وهم المشاهد التي تبدو مشوشة، ويمتزج فيها التمرد والغموض والسحر والتعبير الصارخ لقساوة الحياة بحيث أننا نلمس جمالا في هذه القساوة، كما نكتشف حسا تراثيا يجمع بين الإرث الأندلسي الأصيل والمدرسة التكعيبية المعاصرة.

وإلى جانب الرسم والتلوين بأصبغة الغواش، اشتغلت الفنانة كذلك على الطين حيث أنجزت بواسطته العديد من القطع الفنية في مجال السيراميك ومن بين أشهر ما يقال عن إبداعات الفنانة **باية:** "أنها الأميرة السلطانة التي تمسك مجدافا" الفنان أندري بريتون، كما يقول عنها الناقد الجزائري **أحمد عبد الكريم** أنها رسامة فطرية نادرة لا تؤمن بالقيود المدرسية الأكاديمية وجعلت من الفن الساذج توجها صباغيا جديدا في ساحة التشكيل الجزائري والعربي... توجه يحمل في داخله وخارجه ملامح الهوية والمرأة الجزائرية البسيطة"، كما رصد لها الفنان الجزائري **حسن بو عبدالله** شريطا وثائقيا مرجعيا حول تجربتها التشكيلية الراقية والمتميزة وقال أنها "هبة الله في كل تجلياتها الكاملة"، وقال عنها الناقد المغربي في سياق تحليل مسيرتها الفنية: الفن التشكيلي المعاصر نشأ في الجزائر في العشرينيات بفضل تألق العديد من الفنانين المبدعين الذين بقوا أوفياء لإرث بلادهم وأجدادهم خاصة مع ظروف الاستعمار.

إذن ومنه يتضح الإبداع في هذه التجربة من خلال تقنيات البساطة والسذاجة للوحات **باية** الثلاثة من حيث تصوير الموضوع القريب مما عايشته الفنانة في الريف، ومن حيث الشكل الألوان البراقة التي تتوافق والموضوع المجسد في اللوحة وكأن الفنانة تحاول أن تخلق لنا نموذجا جديدا في عالم الفن، هذا النموذج يقترب إلى حد ما من المدرسة الواقعية التي تصور لنا الحياة كما تبدو دون إنقاص أو تزييف ومن المدرسة التكعيبية التي أثرت في المسار التكويني لهذه الفنانة، وانطلاقا من هذه التجربة الفريدة من نوعها أسست **باية** بأسلوبها الفني المتميز وتلقائيتها الطفولية مدرسة جديدة في الفن التشكيلي الجزائري والعربي، فبفضل أسلوبها الذي يمزج عناصر من الهوية الوطنية والعربية تمكنت من تحقيق سمعة وإشادة كبيرتين على المستوى العربي والعالمي لكن وللأسف الشديد لم يتم الاستفادة من هذه التجربة الفنية في مجال الجماليات البصرية ولم يتم إعادة النظر في مثل هذا التراث الزاخر وهذه الجوهرة التي تركت ورائها أعمالا خالدة أعجب بها كبار الفنانين العالميين وتوجت في مجموعة الفن الساذج في لوزان بسويسرا.

يمكن القول في الأخير أن التجربة الفنية التشكيلية للفنانة **باية** تشكلت من خلال أطوار ثلاثة تطورية: طور الأنامل البريئة وطور التنشئة الفنية، وطور الإبداع الجمالي، وكل طور إلا ويكمل الآخر لتتوج هذه الأطوار بتجربة فنية أراها في تصوري ناجحة أما الإبداع الفني نلمسه من خلال أيقونات البساطة والسذاجة التي طبعت جميع أعمالها.

ويمكن استثمار هذه التجربة من خلال مجموعة من الاقتراحات وهي:

- خلق مدرسة فنية جزائرية بأنامل البايات الجدد أو ما يسمى بالمدرسة البايوية.
- إجراء تخصص جديد في مجال الفنون التشكيلية هو الفن الساذج البايوي.
- إنتاج فيلم وثائقي يروي حياة الفنانة **باية محي الدين** ومسارها الشخصي والفني.
- تخصيص شريط وثائقي أو حصة تلفزيونية للتعريف بالفنانة وبأعمالها.
- تكليف وزارة الثقافة بإنشاء معرضا وطنيا أو دوليا للوحات الخالدة التي تركتها **باية** حتى لا يتم خطفها منا من طرف الفرنسيين، وحتى نرد الجميل لهذه الفنانة الساحرة.

الهوامش:

* Aimé Maeght إيمي ماغت هو فنان ومنتج معارض من مواليد 1906 ب هازبروك شمال فرنسا بالقرب من ليل مدينة الفرنسية، وهو مؤسس معرض ماغت الشهير الذي يقام بالقرب من مدينة نيس، ويعد من أشهر منتجي الأفلام ومعارض الفن الحديث والمعاصر، توفي سنة 1981.

*الفن الساذج Art Naif تعبير يستخدم للدلالة على ما ينتجه أناس لم يتلقوا تعليما مسبقا في التصوير أو النحت أو العمارة، أناس عاديون متفرغون يعملون في اختصاصات أخرى من بينهم الطبيب، المهندس، وربة المنزل حيث أنتجوا أعمالا فنية تستحضر سجلا لمشاهدة الروابط الفطري وسجل لمشاهدة الروابط الغريزي وسجل لمشاهدة الروابط البدائي الجديد، وأول من اكتشف هؤلاء الفنانين هو جامع اللوحات الألماني **ويلهلم أوهد**،ويمكن أن يكون الريف هو سجل لمشاهدة الروابط الساذج الذي يعتمد فيه الفنان على مخيلة مبتكرة لحرفين مهرة، وعلى إثر الحرب العالمية الثانية أقيمت للفن الساذج معارض عدة في مختلف المدن الأوربية وثمة متاحف خاصة لمشاهدة الروابط الساذج حصرا في كل من لافال laval حيث ولد **هنري روسو** و**نيس** وهما من أشهر الفنانين في هذا المجال، أما في البلاد العربية نجد الفنان الدمشقي **أبو صبحي التيناوي**، والفنانة الجزائرية **باية محي الدين**.

1-جمال الدين طالب، في ألوانها يجد العالم براءته الأولى 29-06-2009
www.nizwa.com/ser_nizwa_articlesslist.php/vue le samedi 19-07-2014à 01:30h.
2- magharebia.com/ar/articles/awi/feature/vue le dimanche 20-07-2014 à 01:00h.
3-fr.wikipedia.org/vue le vendredi 01-08-2014 à 02:00h.
4-anatole.jokovsky,lexique des peintres naïfs du monde entier, Basilius Press –Bale, suisse 1967.
5-Baya, Préface de Jaston Deffere, texte de Jean de Maisonseul , Musée Cantini , Marseille 1982.
6-Baya, Avant propos de Michel Mountashar, texte de Edmonde Charles-Rouse, Michel-Georges Bernard, Lucette Albaret, Musée Réattu , Arles 2003.